صورة الأنا والآخر في رحلة الطّاهر بن عيشة إلى آسيا الوسطى

The image of the ego and the other in Tahar Benaicha's journey to Central Asia

عسلي أيوب[1]*، أ.د يوسفي يوسف[2]

[1] كلية الآداب واللّغات- جامعة تيارت (الجزائر)، asseli.ayoub@univ-tiaret.dz

[2]كلية الآداب واللّغات- جامعة تيارت (الجزائر)، yousfi6060@hotmail.fr

مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر

تاريخ الاستلام: 2024-02-23 تاريخ القبول: 2024-03-31 تاريخ النشر:2024-06-01

مُلخّص البحث

ترصد هذه الدّراسة صورة «الأنا والآخر» بمختلف تمظهراتها، في رحلة «الطّاهر بن عيشة»، الموسومة بـ «أيام مع المسلمين السّوفيات»؛ ففي رحلته هذه زار ثلاثة بلدان سوفياتية آسيوية، ليرسم صورة لأناه، وصورة للآخر على تعدّده وتنوعه. فلهذه الدّراسة -إذن- أهمية في الكشف عن مختلف تجليات الصّورة في عمل رحليّ لرحالة جزائريّ، طاله الإهمال على مدار ما يزيد عن ثلاثة عقود. وعليه تدخل هذه الدّراسة في إطار محاولة نفض الغبار عن أعماله المهمشة. كما تسعى إلى المساهمة في ردّ الاعتبار لقامة من قامات الفكر والثّقافة الجزائرية.

كلمات مفتاحية: الصّورة، الأنا والآخر، رحلة، الطّاهر بن عيشة، آسيا الوسطى، مسلمو آسيا.

Abstract:

This study spots the light on the image of "the ego and the other" in its various manifestations, in the journey of "Tahar Benaicha," that is entitled "Days with the Soviet Muslims." On this trip, he visited three Soviet Asian countries, to draw an image of his ego, and an image of the other in all his multiplicity and diversity. This study is therefore important in revealing the various manifestations of the image in a travelogue by an Algerian traveller, which has been neglected for more than three decades. Accordingly, this study tends to shaking the dust off his marginalized works. It also seeks to contribute in restoring the reputation of one of the Algerian pillars of thought and culture.

Keywords: The image, The Ego and the Other, a journey, Tahar Benaicha, Central Asia, Muslims of Asia.

* المؤلف المرسل: ط.د عسلي أيوب

1. مقدمة:

الثّقافات على اختلافها، والآداب على تنوعها، تنتج صورا عن «الأنا والآخر»، ومن شأن هذه المنتجات أن تسهم في تأسيس علاقات، وتدمير أخرى؛ فالمخيال الجمعيّ يتأسس عن طريق هذه الصّور والأفكار العامة التي تستطيع غزوه والسّيطرة عليه إلى حدّ ما. وقد كثر في المنتجات الأدبيّة على وجه الخصوص ما يخدم هذه الأغراض، إذ نجد على سبيل المثال صورة «الأنا والآخر»، وممّا تتجلّى فيه هذه التّيمة بشكل بارز، أدب الرّحلة؛ إذ يعدّ مرتعا تتنامى فيه الصّور بمختلف تجلّياتها، فالرّحالة هو من يستطيع الاحتكاك بالآخر. وأدب الرّحلة الجزائري الحديث لا يشذّ عن هذا التّأسيس الجادّ والطّامح، فالرّحالة الجزائريون أسهموا في إثرائه بالنّصوص الرّحليّة المتميزة، وقد كان من أبرزهم، الصّحافيّ الجزائريّ الطّاهر بن عيشة «1925-2016» الذي كانت له ثلاث رحلات، المدون منها رحلتان؛ واحدة إلى إفريقيا، والأخرى إلى الاتحاد السّوفياتي؛ فهذه الأخيرة جاءت معنونة بـ «أيام مع المسلمين السّوفيات»، زار فيها ثلاث دول هي: «أذربيجان- أوزبكستان- طاجكستان»، وذلك في إطار قيامه بسلسة تحقيقات حول الحضارة الإسلامية. فكان أنْ رسم في مدونته الرّحلية صورة للأنا والآخر، ممّا دفع بنا ورغّبنا للكشف عنها، سيما وأنّنا لم نعثر على دراسة سابقة تتناول هذه الموضوعة خصيصا عند رحالتنا بن عيشة، في هذه المدونة أو المدونة الأخرى، لتنفتح الشّهية بعد ذلك على الرغبة في تبيّن بعض خلفياتها. وعليه، ارتأينا أن نطرح في دراستنا هذه سؤالا نراه محوريّا ومهمّا، متمثّلا في: أيّ صورة رسمها بن عيشة للأنا والآخر في مدونته الرّحلية الموسومة بـ «أيام مع المسلمين السّوفيات»؟ وما الذي تكشف عنه هذه الصّورة؟ وكيف هي علاقة الأنا بالآخر من خلال هذه المدونة أيضا؟

وباللّجوء إلى المنهج الوصفي بآلية التّحليل؛ استطعنا إلى حدّ كبير استجلاء معالم هذه الصّورة، والكشف عنها، عبر مختلف الفضاءات التي زارها الرّحالة، وعبر مختلف المقاطع أو الشّواهد

طيّ نصّه الرّحليّ. كما أنّ وضع منهجيّة للعمل سهل علينا الوصول للهدف المنشود، إذ كان لنا جزء نظريّ، يخصّص للكشف عن العلاقة بين ثنائية «الأنا والآخر» والنّصّ الرّحليّ، ومدى حضور صورة الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ، والدّافع من وراء ذلك، لتكون هذه الأرضية النّظرية منطلقا يؤطر عملنا في شقّه التّطبيقيّ؛ الذي جاء في بدايته كشفٌ واستجلاءٌ لصورة الأنا (ذات الرّحالة) من خلال المدونة موضوع الدّراسة، ثمّ كشفٌ واستجلاءٌ لصورة الآخر على حسب الفضاءات التي زارها الرّحالة تباعا، وفي الأخير أدرجنا تحت عنصر الخاتمة ما خلصنا إليه من نتائج هامّة.

وممّا نلفت العناية إليه أنّ هذا الدّراسة من بين ما تهدف إليه أيضا، التّعريف بالرّحالة الجزائريّ الطّاهر بن عيشة، الذي لم تحضَ أعماله بالعناية والدّرس الأكاديمي لحدّ اللّحظة.

2.صورة الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ

1.2 الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ:

إنّ من يتتبّع ثنائية «الأنا والآخر» محاولا رصد تعريفات قطعيّة لها، فسيقع في إشكالات عديدة أولاها أنّه "لو حاولنا تحديد دلالة «الآخر» فلن يتأتى لنا القبض على دلالة ثابتة؛ نظرا لأنّه مفهوم نسبيّ"[1]، ومع هذا فإنّنا لَنجد بعض الاتفاق من جانبين أولهما لغويّ: فـ "اللّغة تقتصر على تعريفه بالمغاير للأنا"[2]، وثانيهما اصطلاحيّ؛ فأغلب من أورد تعريفا للآخر إلّا وذكر اختلافه مع الأنا، وأذكر لهذا بعض الأمثلة حتى يتّضح المقالُ:

- "الآخر هو كلّ ما ترى الذّات أنّه مخالف لها أو مختلف عنها"[3]
- "الآخر هو المختلف تماما عن الأنا في الكثير من الجوانب والمستويات"[4]
- "الآخر هو المختلف عن الأنا إيديولوجيا وعقديا، وحضاريا"[5]
- "الآخر هو ذاك الذي تقضي الذّات بمخالفته لها وتحكم باختلافه عنها في نظم الحياة"[6]
- "الآخر هو المختلف عنّا في أيّ جانب من الجوانب التي نهتمّ بها"[7]
- "وفي دراستنا حول أدب الرّحلة فإنّ الآخر هو ذلك المختلف ثقافيا"[8]

ومن هذا يتأكّد لنا أنّ الآخر مختلف ومخالف للأنا في العديد من الجوانب، والتي منها: الإيديولوجيا، الثّقافة بكلّ مكوناتها، ... أي أنّه كيان قائم بذاته مختلف في كثيره عن الأنا، رغم ما هو كائن من مشترك عامّ يتعالى على كلّ التّصنيفات، ويؤكد انتماء الأنا والآخر إلى نفس الفضاء في النّهاية. لذا نرى أنّ الآخر بالنّسبة للذّات/الأنا ضرورة باعتباره "جزءا من حياتنا كأفراد، وشعوب ودول"[9]، وكضرورة من جهة أخرى "للإمساك بالذّات ومعرفة منجزاتها ودرجة حضورها وتحضّرها"[10]، وعليه "لا يمكن أن توجد الأنا بدون الآخر، والعكس صحيحٌ، فهما، وإن تباعدا وتنابذا، يتفاعلان، فيما بينهما سلبا أو إيجابا بالنّظر إلى علائق القوى"[11]، ومن هنا تُطرح علاقة الأنا بالآخر فبقدر التّكامل الذي يجب أن يكون حاضرا بينهما، إلّا أنّ العلاقة في أحيان كثيرة تُطبع وتتّسم بالرّفض أو بالقبول أحيانا أخرى "تبعا لمستوى الوعي، وسلوك الآخر"[12].

وإنّ حضور هذه الثّنائية في النّصّ الرّحليّ حضور لافتٌ للانتباه، أقلّ ما يقال عنه ملازم لهذا النّمط من النّصوص، لاعتبارين اثنين أولهما أنّه "لا تخلو رحلة من سرد ووصف وتعليق من «الأنا» المحركة لكلّ هذه المشاهدات والمرويات والتّخيّلات والأحلام"[13]، فالأنا/الذّات حاضرة بقوة في النّصّ الرّحليّ وتحرّكه كيفما تشاء، وبم تشاء أيضا، وثانيهما "الآخر مكوّن أساسيّ من مكونات الخطاب الرّحليّ"[14]، وكنتيجة حتميّة فإنّ حضور الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ يعدّ ضرورة لقيام معمار النّصّ الرّحليّ ككلّ، فهذه الموضوعة -إذن- ثابت يتعالى على كلّ الثّقافات واللّغات في الوقت الرّاهن على الأقل، وما سبق يؤكده حليفي بقوله: "القول بنصّيتها هو انفتاح على دينامية الرّحلة، وعلى خطاباتها المستندة على طرفي الذّات والآخر"[15]. فالرّحلة في أصلها لقاء بالآخر واحتكاك بالثّقافة المغايرة[16]. وعلى ما سبق تكون الرّحلة "الشّكل المميّز والملائم للتعبير عن الذّات والآخر من خلال مختلف تحولاتهما النّفسيّة والتّاريخيّة والاجتماعيّة والجغرافيّة"[17]. وتأسيسا على النّتيجة الختاميّة التي توصلنا إليها والمتمثلة في أنّ حضور الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ دائمٌ، بوعي أو غير وعي، لمقصديّة أو بدونها ظاهريًا، يحق لنا أن نطرح تساؤلا نراه في غاية الأهمية ألا وهو: لماذا تحضر الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ؟ وإجابة عن هذا نحاول تجميع بعض وجهات النّظر، التي نرى من أهمها:

- التّعريف بالآخر والحديث عنه: "للرحلة في تراثنا العربيّ الإسلاميّ وظائف شتى تقوم بها، وليست الرّحلة، من حيث هي مصدر في معرفة الآخر أو الحديث عنه سوى إحدى تلك

الوظائف"[18]، فهذه الوظيفة التي تضطلع بها الرّحلة؛ تسهم بشكل كبير في تشكيل صورة عن الآخر، وبالتّالي المساهمة الفعّالة في تأسيس المخيال الجمعيّ.

- الكشف عن خلفيات ووجهات نظر: فالنّصّ الرّحليّ يتشكّل "للتعبير عن رؤية معينة"[19]، فما يقدّمه الرّحالة من رؤى وتصورات حول الذّات أو الآخر، يكشف عن طريقة تفكير ووعي، تجاه الذّات والآخر، من الممكن أن تسهم في تأسيس أو تذويب علاقات.

- المساهمة في إزالة سوء الفهم، والإعلاءُ من شأن الهامش: فالنّصّ الرّحليّ "ذو خصيصة ومن ثمّ تصحيح النّظرة عن الآخر/البعيد في بلاد الله الواسعة، كما يمنح لخطاب الأنا الهامشيّة المنتسبة إلى الدّول المستعمَرة إمكانية إنشاء سردية جديدة عن ذاتها، وعن ثقافتها، وقيمها، وسلوكاتها، وحضارتها"[20]، ومن أفق ما بعد كولونيالي، للنّصّ الرّحليّ بموضوعته الأساسية المتمثلة في الأنا والآخر يسهم بشكل جادّ في إزالة سوء الفهم الكائن بين الأمم والشّعوب، بتصحيح النّظرة حول الآخر، التي من الممكن أن تكون مترسّبة، أو بُثّت لأغراض معينة في زمن سابق، كما أنّ الهامش باعتباره أنا، يحقّ له التّعبير عن ذاته وهويته، فها هو إذن النّصّ الرّحليّ مساهم فعّال في الدّفاع عن مختلف الذّوات المهمشة.

- الكشف عن هوية الأنا ومحاولة إرسائها: فالرّحلة "تجربة إنسانيّة فرديّة ينعكس في خطابها هوية الرّحالة وثقافته باعتبارها سردا ذاتيا"[21]، فهذا من المهام التي تضطلع بها موضوعة الأنا والآخر بحضورها، إذ تسهم بشكل كبير في تسييج الهوية ونقلها، دفاعا عنها، وتثبيتا لها.

2.2 صورة الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ:

من المشروع جدّا ها هنا أن نتساءل: هل صورة الآخر يختصّ بها النّصّ الرّحليّ لوحده؟ إنّ ما طرحه أحد الباحثين بقوله: "تحمل كلّ الثّقافات والحضارات الإنسانية المختلفة صورة ما للآخر"[22] يؤكد أنّ حضور صورة الآخر ظاهرة عامة لا يختصّ بها الأدب لوحده، لكن مع القليل أو الكثير من الاختلافات، فالنّصوص الرّحليّة –على سبيل المثال– "في كلّ الثّقافات واللّغات هي من أكثر النّصوص كفاءة في تقديم صورة عن الآخر المختلف دينيّا وثقافيّا، بالنّظر إلى ما تسمح به الرّحلة من تنقّل داخل الفضاءات المختلفة، ومشاهدة والتقاء، وحوار"[23]، فهذه الميزة الأخيرة هي

سبب كفاءتها العالية في نقل صورة للآخر، إضافة إلى كونها "الفضاء الأمثل لبناء صورة الآخر"[24]. وما يجب أن نؤكده في هذا الصّدد أنّ صورة الآخر في الخطابات الرّحليّة مكونةٌ ضروريّة وأساسيّة، ولازمة من لوازم تحقّقه[25]، فبدونها لا يستقيم النّصّ الرّحليّ ولا يستوي.

وما يلحّ علينا في الطّرح ونحن نعالج هذه المسألة هو: ما حقيقة صورة الآخر؟ ولماذا كلّ هذا التّغييب لصورة الأنا؟ وهل لهما ارتباط ببعضهما؟ سنحاول رصد بعض الإجابات التي نراها تميل إلى القطعية والتّسليم. فصورة الآخر "بناءٌ في المخيال وفي الخطاب"[26]، "وهي بذلك تصير تمثيلا لغويّا وذهنيّا للأنا والآخر"[27] وإعادة خلق له[28]، أي أنّها لا تحضر إلّا على مستوى الذّهن فتنعكس كتمثيل على مستوى الخطاب، ولا تساوي مطلقا الآخر، فهي تعويضٌ له، قد تقترب منه، أو تبتعد على حسب العلاقات القائمة بين الأنا والآخر في مجملها.

إنّ استحضار صورة الآخر يحمل في طيّه استحضارا لصورة الأنا، فـ "صورة الآخر تخبرنا عن واقع الذّات الممثِّلة أكثر ممّا تخبرنا عن الآخر الممثَّل"[29]، أي أنّها تضطلع بمهام أساسية في الإخبار عن الذّات وصورتها بشكل أكبر منه عند الحديث عن الآخر فعلا، وهذا ما أكّده جلّ الباحثين الذين عالجوا هذا الموضوع من زوايا مختلفة، التي نورد من أهمها ما يلي:

- صورة الآخر: "عندما ترى الآخر، فهي في الآن نفسه، تكشف عن صورتها. فهو يُعتبر امتدادا مباشرا لها، وجزءا من كيانها، ومحدّدا لموقفها من الوجود"[30]؛ ففي أغلب الأحايين يبدو أنّ الذّات تكشف عن صورة الآخر لكنّها في واقع الأمر تكشف عن صورتها، باعتبار أنّ الآخر جزءا من الأنا –وهو ما أشرنا إليه سابقا–.
- "صورة الآخر لا تُعنى بالآخر فحسب، بل تعرّي الذّات قبل أن تكشف الآخر، وتؤكد على الهوية قبل أن تبرهن على الاختلاف"[31]؛ أي أنّ صورة الآخر تُعنى بالذّات بدرجة أكبر من اعتنائها بالآخر، باعتبارها تعرّي الذّات وتُفصح عنها.

فمن هذا يتأكد لنا بأنّ كلّ صورة عن الآخر هي صورة عكسيّة عن الأنا، باعتبار الآخر مرآة عاكسة، ولهاتان الصّورتان ارتباط وثيق ببعضهما، إذ لا تتأسّس صورة دون أخرى. وممّا نراه مهمٌّ أيضا، هو الوقوف على بعض الأسباب الدّاعية إلى استحضار صورة الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ، والتي منها:

- التّأسيس للهوية الذّاتية: "فعن طريق الحدّية الثّقافية، التي يمارسها الرّحالة في نصّه الرّحليّ بين الذّات والآخر لا تتشكّل فقط تلك التّصورات النّمطية عن الآخر فحسب، بل يتمّ أيضا التّأسيس للهوية الذّاتية"[32]؛ فهذا من أكبر الدّوافع الرّامية إلى ممارسة الحدّية الثّقافيّة، وخلق التّمايز والاختلاف بين الذّات والآخر، إذ تسعى الذّات إلى تأسيس هويتها حفاظا على كينونتها ووجودها. وبالتّالي استحضار صورة الأنا والآخر في النّصّ الرّحليّ بشكل خاص.

- التّأسيس لمعرفة متعلقة بالذّات والآخر: "إنّها تؤسس معرفة جديدة حول الآخر [...]، كما تكشف عن معرفة مغيبة عن الذّات الجماعيّة لم تكن لتطفو على السّطح لولا استحضار صورة الآخر كمرآة عاكسة لذاتنا"[33]؛ فالتّأسيس لصورة الآخر واستحضار معلومات عنه، هو في حقيقة الأمر استحضار لمعلومات متعلّقة بالأنا الفرديّة أو الجماعيّة، وها هنا لولا الآخر لما تعرّفنا على ذواتنا بالشّكل اللّائق والمطلوب، فللآخر إذن دور مهمّ في استجلاء ومعرفة الأنا على حقيقتها.

- التّأسيس لصورة موضوعيّة: "يطمح الرّحالة إلى إعادة تأسيس صورة قوامها الموضوعيّة والصّدقيّة يصحّح المتلقي من خلالها تصوره للآخر"[34]؛ العلاقة التي تربط الأنا بالآخر تلعب دورها البارز ها هنا، لذا يطمح الرّحالة إلى تصحيح كلّ الاختلالات التي تعتري الصّورة، والحيادُ الذي يلفّها، ممّا سينعكس على تحسّن العلاقة أكثر فأكثر.

3.صورة الأنا والآخر في رحلة الطّاهر بن عيشة إلى آسيا الوسطى

الطّاهر بن عيشة (1925-2016) : صحافيّ ورحالة جزائريّ؛ من مواليد قمار بوادي سوف،[35] خريج الزّيتونة بتونس، التحق بالصّحافة غداة الاستقلال.[36] من أهمّ أعماله: برنامج أسبوعيّ في التّلفزة «الحياة الثّقافية»، «الحضارة الإسلامية»، ومن البرامج الإذاعيّة الأسبوعيّة؛ «صوت العمال»، «نافذة على إفريقيا»...[37] ومن أعماله الرّحلية المنشورة في مجلة الوحدة: «رحلة إلى المسلمين بالقارة السّمراء» المنشورة سنتي (1986-1987) ، والرّحلة إلى السّنغال التي تعدّ تكملة للرحلة الأولى التي قام بها، إذ جاءت هذه تحت عنوان «الإسلام النيقرتيدي» المنشورة سنة

(1988) ، والأخيرة محلّ الدّراسة «أيام مع المسلمين السّوفيات» المنشورة سنتي (1988-1989) ، وقد كانت هذه الرّحلة في واحد وثلاثين حلقةً بيانها كالتّالي؛ الأولى مخصّصة للتقديم، من (02 إلى 09) مخصّصة لأذربيجان، من (10 إلى 27) مخصّصة لأوزبكستان، من (28 إلى 31) مخصّصة لطاجكستان. وممّا يجب أن نشير إليه أنّ القيام بالرّحلة -الزّيارة الثّانية- فعليّا كان في ربيع 1982[38]، والدّافع الحقيقيّ من ورائها: حالة الصّراع الدّاخلي التي يعيشها بسبب الشّكوك التي كانت تساوره بشأن صحة أو عدم صحة المعلومات التي يقدّمها إعلام النّظام الرأسمالي وأتباعه، وعدم تشكّل صورة واضحة وكاملة عن المجتمع الإسلامي في الجمهوريات الاشتراكية من خلال الإعلام الاشتراكي. إذ يقول بصريح العبارة: "وما أخفيته على محدثي هو هذه الشّكوك التي كنت أتلقاها عن واقع المسلمين في الاتحاد السّوفياتي، وكنت أرى أنّ الفرصة حانت لتبديدها"[39]. فهذا الدّافع من وراء الزّيارة الأولى، وحين الزّيارة الفعلية فكّر الرّحالة في إعداد برنامج للتلفزيون الوطني حول المسلمين السّوفيات وحقيقة ما هي عليه[40]، وقد تمّ له ذلك بالفعل.

1.3 صورة أنا الرّحالة:

لا يتحدّث الرّحالة عن ذاته بشكل مباشر، بل عن طريق توصيفه للآخر وسلوكياته، وبعض ما يطرحه من رؤى وأفكار، ليمكننا كلّ ذلك من تشكيل صورة إلى حدّ ما عنه. لذا يقول في بداية مدونته: "ودارت الأحاديث المتنوعة والمشوقة مع كبار علماء المسلمين بهذه البلاد وبدأت سحب الشّك تتبدّد في أعماق نفسي"[41]؛ فمن هذا يتراءى لنا أنّه شخص منفتح على الآخر، يقدّر العلماء، جاعلا إيّاهم مصدر طمأنينة وسكينة لروحه التي تجتاحها الصّراعات الدّاخليّة، والمنشغلة بهموم المسلمين، كما أنّه بمجالسته للعلماء يودّ أن يبرهن على علوّ كعبه في العلم والفكر عموما، وقد أشار إلى هذا في العديد من المواضع حين حديثه عن الآخر الأذربيجاني، نورد منها: "وقد كانت لنا جلسة علميّة أخويّة [...] وذلك مع عميد المعهد، وثلة من زملائه العلماء"[42]، وأيضا: "بعد الحديث الذي دار بيننا وبين سماحة شيخ الإسلام [...] وكذلك مع فضيلة مفتي السّنة بهذه الدّيار"[43]. كما أنّه يجعل للأنا مكانتها الخاصة والرّفيعة، فها هو على سبيل المثال شيخ الإسلام بأذربيجان منتظرا له، ومحاورا إياه، وهو الرّتبة الدّينيّة القياديّة الأعلى، وعن ذا يقول: "حيث وجدنا بانتظارنا شيخ الإسلام بهذه الدّيار"[44]، فهذا لدليل على التّقدير والمكانة الرّفيعة التي تحظى بها الأنا،

وربما كلّ هذا لأنّه يقوم بأعمال نبيلة تخدم الحضارة والتّراث في بعديهما الإنساني، وهو المصرّح بالفائدة المرجوة من القيام بهذه الرّحلة: "عملنا النّبيل، الهادف لخدمة الحضارة والتّراث الإسلامي"[45]. فالأنا في إحدى تجلّياتها أنّها خادمة للفكر والثّقافة والإنسان، وهذه من أجمل السّمات التي يمكن للمرء أن يوصّف بها نفسه، لتحسين صورته الموثّقة، ولا يتوقّف عند هذا الحدّ بل يستمرّ بين الفينة والأخرى في تقديم صور عنه طيّ نصّه الرّحليّ، فهو المثقف؛ المهتم بكلّ ما له صلة بالثّقافة والفنّ، ولا سيما الثّقافات الأخرى، لذلك يقول في العديد من المواضع التي نرصد منها: "وأثناء تجولنا في قاعات المعرض المترامية"[46]، وأيضا: "وقد كان لنا الشّرف أن حظينا بحضور جزء هامّ من هذه التّظاهرة الثّقافية"[47]. وهو المشاكس الثّائر؛ الذي لا يتوانى في الدّفاع عن بلده، العامل على تصحيح صورة الجزائر في الخارج، بتصحيح المعلومات والأفكار المغلوطة حولها، ورفضه لما يدّعيه آخرون من إقصاء وتهميش لأبنائها وثقافاتهم ولهجاتهم، وبالتّالي رفضه لمجاراتهم الاستعمار، فهو بهذا يدعو إلى الوحدة، ونبذ التّفرقة والعنصرية والشّتات، ويؤكد بأنّ الجزائر منفتحة على كلّ أبنائها، حاضنة للهجاتهم وثقافاتهم، عاملة على فتح قنوات رسمية لإسماع صوتهم، بدل التّعبير نيابة عنهم، وإبقائهم مهمّشين، وكلّ ما سبق نقرأه من الحوار الذي دار بينه وبين أحد المسؤولين السّامين بأذربيجان، والذي صرّح أمامه ببعض أفكار «هنري علّاق»، لذلك نجد بن عيشة يقول مدافعا: "بقي أن أقول لك، بأنّ هذه النّغمة البائسة التي سمعتها منك، هي تأليف وتلحين الاستعمار الفرنسي بالذّات، والهدف منها السّعي لخلق حالة توتر، والتّشتت بين أبناء الشّعب الجزائري"[48]. كما أنّه المنفتح على جميع التّيارات والطّوائف، المجادل لها، أو المتعلّم منها، والمقدّر لها، والمصرّح بالتّوافق معها أو غير ذلك دون تحرّج ولا أدلّ على ذلك من حواره مع شيخ الإسلام إمام الشّيعة، والأمين العامّ لاتحاد الصّحافيين بأذربيجان، فالأول كان موافقا له في الكثير من الفكر، والثّاني خالفه، وانتقد فكره الخاطئ؛ فهو إذن يكره النّفاق والمجاملة. وفوق كلّ هذا يمكنه أن يقيم صداقات، ويقدّسها، ولا يحبّ ما يصيب أصدقاءه من مكائد، لذا نراه مهتما لحالهم: "أدعو الله أن يجنّب الشّعب السّوفياتي الصّديق مكائد الصّهيونية"[49]؛ ومن خلال هذه العبارة أيضا نقرأ كرهه الشّديد للصّهيونية والإمبريالية، وقد صرّح بهذا في أكثر من موضع في ثنايا مدوّنته، فهو مقدّس للاشتراكية.

فالصّورة التي يقدّمها للأنا لحدّ الآن مشرقة ومشرّفة، تخلو من كلّ سلبية، عامرة فقط بالإيجابية، فهو: السّيد رفيع المقام، الثّائر، المدافع عن وطنه وأمته، الجانح للحقّ والعدالة والتّحرر، المثقف المجادل، الذي لا يخشى مجالسة كبار العلماء ومناقشتهم، الطّامح لمزيد من التّعلم، الفرح بذلك، المنفتح على غير المسلمين، المحبّ للسلام والألفة.

وبانتقال الرّحالة إلى فضاء آخر نجده يتحدّث عن الآخر غير المؤمن، لكنه في واقع الأمر يتحدّث عن ذاته؛ فتوجهاته الفكرية واعتقاداته التي صرّح بها في الكثير من اللّقاءات الصّحفية، تفرض علينا تبنّي هذا التّصور، الذي نلحظه من خلال مشاركته الآخرين صلاة الجمعة، إذ يعبّر قائلا: "في تأثّر عميق لهذا المشهد الرّوحيّ الجليل [...] ولكن مشاعرهم الدّينية لم تنطفئ، بل كان العطش الرّوحي هو الذي دفعهم للمشاركة الجزئية في الصّلاة"[50]. كما أنّه يعلن عن تحرّره؛ فيجاهر في الكثير من المواقف بمحبته للخمر ومعاقرته إيّاه، وهذا الفعل قلّما نجد من أبناء الصّحراء الجزائرية من يفعله علنا، فمعاقرته الخمر إثمٌ، والمجاهرة بها تضاعف من الإثمِ، ولكنه مع ذلك لم يستحِ ووثّقه، ممّا يسلط الضّوء على الخلفية التي تشتغل ها هنا، وانتمائه للدّين الإسلامي، أو الأصح إيمانه، وممّا نستدلّ به قوله: "أحفظ له هذه الأبيات التي يتلهّف فيها على شرب كأس من النّبيذ"[51].

ومن أجمل الصّور التي يثني بها على نفسه: أنّه إنسان صادق، لا يخاطب الآخرين من منطلق خلفيات سوداويّة، كما أنّه محبّ للاستزادة من الفكر والتّعرف على ما عند الآخر، فهو لا يقصيه، كما لا يتعالى عليه، أو ينبذه، بل على العكس تماما، يسعى لتأسيس علاقات صداقة متينة وقوية، وهذا ما التمسه بدوره عند من التقى بهم من السّوفيات الآسيويين عموما، إذ لم يرد على لسانه أيّ نعوت تتعلّق بنفاقهم، وخداعهم، وحيلتهم، وممّا يمكننا أن نستدلّ به قوله: "كانت أحاديث الصّداقة والإخاء تدور بين الجميع في صدق وبراءة ولهفة"[52]، وهذا هو التّآلف بعينه.

إضافة إلى ما سبق يلجأ الرّحالة إلى تعزيز بعض الصّور التي رسمها، والتي منها، اهتمامه الشّديد بالثّقافة والعلم وبما لدى الآخر، رغبة في نقل الجميل منه إلى شعبه لينهض، ويبثّ فيه بذلك نفسا جديدا، لا سيما وأنّه لا يزال في مرحلة بناء وتشييد؛ ومن خلال هذا يظهر رحالتنا في وضعية هوس، وتأكيدا لما سبق يقول: "بعد أن أنهينا زيارتنا للمعالم التّاريخيّة والحضاريّة ومراكز العلم والثّقافة بطشقند العامرة"[53]؛ كما أنّه من خلال هذا يضمّن دعوة للقائمين على شؤون الثّقافة

ببلادنا، والتي نجد في صلبها ضرورةَ الحفاظ على التّراث المادي. ومن الصّور المعزّزة أيضا أنّ للأنا مكانة ورفعة، يقدّرها الآخر بشكل كبير. كما أنّه من جهة أخرى بزيارته لأضرحة عظماء الإسلام والحديث عن سيرهم يحاول أن يبدّد المزاعم والشّكوك التي طالته في حياته، والمتعلقة أساسا بإيمانه ومعتقداته، فهو من خلال هذه الأفعال والسّلوكيات والأقوال يودّ أن يبرهن للآخرين خطأ اعتقادهم فيه؛ فهو محبّ للدين الإسلامي، خادم له، مهتمّ لشأن المسلمين، ولا يرضى بضعفهم، فعلى سبيل التّمثيل، يعبّر قائلا: "قصدنا زيارة مسجدها العامر، حيث رافقنا فضيلة إمام هذا المسجد، لزيارة ضريح الإمام البخاري [...] وبعد جولة مطولة في رحاب الرّوضة..."[54]

وما يقرأ عموما عن أنا الرّحالة من خلال مدونته محلّ الدّراسة؛ سعة اطلّاعه، وثقافته الموسوعيّة التي إن دلّت فإنّما تدلّ على اهتمامه بالكتاب، فعلى سبيل المثال لا الحصر استشهاده بالشّعر العربي، وبما قيل من كلام العرب حول المدن أو الأعلام، وتعرّضه للتاريخ الإسلامي...

2.3 صورة الآخر السّوفياتي الآسيوي:

بالارتحال إلى الاتحاد السّوفياتي، زار بن عيشة العديدَ من الفضاءات التي لاقته بالآخر، السّوفياتي الآسيوي على وجه الخصوص، فاستطاع من خلال معايشتهم أن يشكل صورة لهم في ذاكرته، لينقلها لنا فيما بعد في مدونته الرّحليّة، وممّا يجب أن نشير إليه ها هنا أنّ الرّحالة زار ثلاث دول فقط، وهي: أذربيجان- أوزبكستان- طاجكستان، وفيما يلي أهمّ صور آخَرِهَا:

- **الأذربيجاني**: أول دولة آسيوية سوفياتية يلتقي فيها الرّحالة بالآخر هي أذربيجان، وقد كان الرّحالة حين تواجده في هذا الفضاء مختلطا إلى حدّ بعيد بالأذربيجانيين، معايشا لهم -في وضعية يسودها التّآلف -، ومحاورا إيّاهم ممّا سمح له بتشكيل صورة تدنو إلى الواقعيّة والوضوح منها إلى الخيال والغموض، وقد كان من أهم الشّرائح والفئات المجتمعيّة التي شكّل لها صورا ما يلـــــي:
  - السّلطة/المسؤولون: نجد الرّحالة يتحدّث عن السّلطات الأذربيجانية بكثير من الإيجابية، إذ يوصّف هؤلاء بأنّهم منفتحون على الآخرين، وداعمون لسبل التّعاون، بكثير من التّفهم الموحي بالتّحرّر والسّيادة، لذا يقول: "مثلما وجدنا تفهّما ومساندة مطلقة من السّلطات السّوفياتية التي

أبدت موافقتها هي الأخرى"[55]، وفي كلّ مرة عبر ثنايا مدونته يعود للحديث الصّريح أو الضّمني عن السّلطة/الحكومة/المسؤولين، ليرسم لهم صورا إيجابية أخرى؛ ولاسيما بعد أن سلّم هؤلاء مقرّهم الحكوميّ الكلاسيكيّ الفاخر لمعهد المخطوطات دون سواه من المؤسسات أو الدّور، فهذا لأكبر دليل على وعيهم الثّقافي الكبير وحسّهم العالي، تجاه تراثهم وذاكرتهم، لذا لم تفته هذه الواقعة فسردها: "لم يطل التّفكير، إذ سرعان ما قرّرت الحكومة تركه لمعهد المخطوطات"[56]

- رجال الدّين: يجتمع هؤلاء تحت سقف واحد رغم الاختلاف العقدي بينهم، وقد حاول الرّحالة مرارا رصد ميزاتهم، بعد أن كان له شرف لقاء قياداتهم؛ إذ يرى بأنّ هؤلاء بميلهم للسلم والمصالحة قد لعبوا دورا مهمّا في توحيد الطّوائف الدّينية تحت راية واحدة، درءًا لأي فتن وصراعات تزهق الأرواح، وممّا يورده: "توحدت الإدارة الدّينية بين الشّيعة والسّنة، بعد أن كانوا مشتتين متناحرين"[57]، فكلّ الفضل -إذن- يعود لرجال الدّين المسالمين. كما لا يتوقف الرّحالة عند هذه الخصيصة بل يتعدّاها إلى العديد منها؛ إذ يتحلّى هؤلاء بكرم التّواضع وعليه يقول: "حيث وجدنا بانتظارنا شيخ الإسلام بهذه الدّيار"[58]. كما أنّنا نلفي انسجاما وتفاهما بينهم رغم الاختلاف الكائن، وهو ما يعكسه قوله: "وهو إمام الشّيعة الاثني عشر، مع نائبه مفتي الحنفيّة"[59]. وفوق هذا رجال الدّين يمتازون بالجود والكرم؛ فهم أهل للضيافة، ولا سيما إذا كان الضّيف من نوع خاص، ممّا أعجب الرّحالة كثيرا فرصده: "وفي مكتب شيخ الإسلام، [...] أطباق الفواكه القوقازية اللّذيذة تدور بين الحاضرين، بسخاء"[60]، ومن أهم الصّفات -هي الأخرى- التي يمكن رصدها ممّا حدّثنا به أنّ رجال الدّين: رموزٌ دينيّة لها مكانتها في المجتمع، على قدر كبير من الثقافة والعلم، متفتحون، متواضعون، يتقبلون الآخر، متفهمون، مصدر سرور ومتعة، وكلّ هذه الميزات يستجمعها رحالتنا في قوله: "بعد أن تحصّلنا على شرف المقابلة الكريمة بهاتين الشّخصيتين الكريمتين، خرجنا ونحن في غاية السّرور والمتعة لما أفادانا به هاذان العالمان الجليلان، من وعيهما العالي، ومعارفهما العميقة"[61]. عموما، الصّورة المشكّلة عن رجال الدّين باعتبارهم آخرا لا تقلّ عن سابقتها، بل على العكس تماما، تنحو أكثر نحو الإيجابية العمياء، الدّالة بشكل واضح على انبهار الرّحالة بهؤلاء، فيكون بذلك في هوس كبير بهم.

- الأذربيجانيون عامة: من أكثر الصّفات التي يركز عليها الرّحالة أنّهم شعبٌ كريم جدّا، نبيلُ الأخلاق، وقد أورد هذا في الكثير من المواضع، التي من بينها قوله: "زيادة على كرم الشّعب، ونبل أخلاقه"[62]، فها هو يثبت لهم هذه الصّفات الحسنة صراحة، والجميل أنّ هذا الفعـــــل لا تختصّ به طبقة دون أخرى فهو عامٌّ عندهم، لذا نجده يقول عن إحدى العائلات التي أحسنت إكرامهم ووفادتهم قولته: "وبالفعل فإنّ كرمهم الحاتميّ غرس في أعماقنا الشّعور بأنّنا لسنا غرباء"[63]، ولا يتوقف الكرم عند العائلات فقط، فحتى العمال منهم على درجة كبيرة من هذا الفعل العام، لذلك يقول عنهم: "وكان غداء جميلا، ينمّ عن السّخاء المفرط، والذّوق الغني المترف"[64]، وممّا يثبت تغلغل هذه الصّفة في المجتمع الأذربيجاني في عمومه، دعوة بعض المواطنين لهم لتناول الطّعام، دون أيّ معرفة مسبقة: "وصلنا ليلا إلى الاستراحة التي تنتصف الطّريق، والتي دعانا القائمون عليها إلى تناول طعام العشاء معهم..."[65]، فهذه الدّعوة تنمّ عن تجذّر هذه الصّفة عند الأذربيجانيين. ومن أهمّ الصّفات أيضا التي ركّز عليها أنّهم شعبٌ مثقّفٌ[66] مهتم بتراثه؛ ودليل ذلك اهتمامهم الخاص بالفنون الشّعبية[67]، وبممارسة فنّ الرّسم التّشكيليّ[68]. كما أنّهم شعبٌ ذواقٌ ووفيٌّ[69]، صارم ومحافظ على عاداته وتقاليده، وتأكيدا لهذا: "وعلى العموم فإنّ التّربية العائلية في آسيا الوسطى، صارمة، ومحافظة، والتّقاليد شريعة لا تسامح، ولا ترحم"[70]. والأذربيجانيون أيضا شعب منفتح، لا يقصي الآخرين، ولا يتعالى عليهم، والدّليل: "وإليكم هذه القطعة الموسيقية من الجزائر، وقام رواد المطعم يرقصون على أنغامها"[71]. ومن الطّرائف التي يوردها حادثة مع سائق سكّير؛ الذي بمجرد علمه بأنّهم وفد جزائريّ شرع في تلاوة القرآن، وفِعل كلّ حَسن تُجاههم، فالسّائق السّكير هاهنا، حتى وإن كان في حالة غياب الوعي بشكل كبير إلّا أنّه بقي محافظا على لباقته وحسن سلوكه تجاه الآخرين، معبّرا عن أسمى آيات الاعتراف والتّقدير لمن يحبّ، كما أنّ مسارعتَه لتقديم الهدايا للآخرين يدلّ على تحضر هذا الشّعب وكرمه، وممّا يورده من هذه القّصة الطّريفة التي تبدو عليها مسحة من التّخيّل والمبالغة قوله: "وخرج من السّيارة وفتح الصّندوق الخلفي وأخذ يقدّم لنا الرّمان الذي لا ندري من أين أتى به، وكان يحمل معه كمية هائلة قدّمها لنا كلّها هدية، مبرهنا بذلك على كرم ونخوة الأذربيجانيين"[72].

إذن، في ختام حديثنا عن صورة الآخر الأذربيجاني ما يمكن قوله، أنّنا حاولنا رصد أكثر الصّور الإيجابيـــــة، حتى لا ندّعي الإحاطة الشّاملة بها، فعلى مدار ثماني حلقاتٍ، يقدّم لنا بن عيشة الصّور الإيجابية فقط، أي انعدام كلّ ما هو سلبيّ من الصّور، ولم نكد نعثر على سبب ذلك صراحة، سوى حبّه لهؤلاء القوم، وتقديره لهم، وكنتيجة أيضا لما لقيه الوفد حين زيارة هذا البلد، ممّا رسخ كلّ ما هو جميلٌ في الذّاكرة التي تمّ استدعاؤها حين تدوين الرّحلة في زمن لاحق.

- **الأوزبكي**: بلاد الأوزبكيين هي ثاني فضاء يلتقي فيه الرّحالة بن عيشة مع الآخر، ليعايشه فينقل إلينا صورا –على مدار سبعَ عشرةَ حلقةً– عن مختلف الشّرائح والفئات المجتمعيّة التي دنا منها وحاورها، وفيما يلي نورد بعضا منها لضيق المقام:

- الأكاديميون/العلماء: لا يتوانى الرّحالة في ترسيم صور جدّ مشرقة لهؤلاء، تعكس إعجابه الشّديد بهم؛ نظرا لضلوعهم في العلم، وعلو كعبهم، ومكانتهم المرموقة التي استطاعوا إحرازها على المستوى الدّوليّ. وممّا يمكن أن نقرأه فيما رسمه لهم أيضا، أنّهم ذوو سلوك حسن، وتواضع جمّ، خدّام لتراثهم الوطنيّ وللإنسانية جمعاء بعطائهم، كما أنّهم على قدر كبير من الانفتاح والتّعاون، وممّا يمكننا أن نمثّل به لعموم ما سبق قوله: "ولأساتذة هذه الجامعة شهرة في العالم أجمع، وذلك مثل عميدها الذي هو عالم رياضيّ مشهور، ترجمت كتبه لأغلب اللّغات الحية، واعتمدت كمصادر علمية في أغلب الجامعات [...] والذي لأبحاثه في مجال اختصاصه شهرة في العالم"[73].

- الأوزبكيون عامة: رسم لهم الرّحالة صورة إيجابيّة جدّا، واضحة بكلّ معالمها، إذ لم تترك شاردة ولا واردة إلّا وأشارت إليها، وممّا ركّز عليه فيها أنّه يؤكد صفة الكرم لهم، مع أصالتهم، ونبلهم؛ فهم شعب متميّز سام يصنع الاستثناء حسبه، لذلك عند ذكرهم ينعتهم على الدّوام: "شعب أوزبكستان الكريم"[74]، وأيضا: "الشّعب الأوزبكيّ الأصيل في النّبل والكرم، يرفض وجود الاستثناء فوق الأرض الخالدة"[75]. وهم أيضا –حسبه– شعب متطوّر، متحضّر، استغلّ ذكاءه ليقطع أشواطا في مضمـــار التّكنولوجيات الحديثة التي استطاع استغلالها لصالحه، ليصبح في مقدّمة الرّكب، وهذا ممّا أبدى إعجابه الشّديد به، ودافع عنه بتقديم أمثلة كثيرة، ليثبت جدارتهم

واستحقاقهم، في ظلّ النّظام الاشتراكي، ممّا يؤكّد هوسه بهم، ليعبّر قائلا: "حيث أصبح هذا الشّعب الذّكي، العريق في الحضارة، يسيطر على التّكنولوجيا المعاصرة سيطرة تامة"[76]. ومع التّقدّم الحاصل يلاحظ بأنّهم لم ينسلخوا من هويتهم بل حافظوا عليها، فهم "يستعملون الزّي الوطني في كلّ الحالات، وفي سائر الأيام"[77]. وممّا أعجب به أيضا أنّهم متمسكون بعاداتهم وتقاليدهم ودينهم، وهذا ينعكس –على الأقلّ– في عدم مخالطة النّساء للرجال داخل البيوت المضيفة، "فالمرأة لا تأكل ولا تجلس مع الرّجال الأجانب عن العائلة [...] هذا التّقليد الذي يمارس بصرامة"[78]؛ ويؤكد على هذا الصّنيع في أكثر من موضع في ثنايا مدوّنته، ومنه: "ولا بدّ من العودة للإشارة بأنّ تقاليد الأوزبكيين، وكلّ مسلمي آسيا الوسطى، تقتضي بأن لا يأكل النّساء والأطفال مع الرّجال"[79] ممّا يدلّ على إعجابه بهذا السّلوك، ورغبته في تبنّيه.

وكما عهدناه قلّما يورد صورًا سلبيّة، ولكنّه في هذه المرّة شذّ عن قاعدته فقدّم لنا صورةً سلبيّة مقيتة عن بعض الشّباب الأوزبكيين الذين يكثرون من شرب النّبيذ في الولائم والأعراس، ليضطرب سلوكهم ويصبحون عدوانيين، فيعكّرون صفو الآخرين ويفسدون ما حولهم[80].

- **الطّاجيكي**: بدخول الرّحالة إلى الفضاء الثّالث والأخير، يحتكّ بالآخر الطّاجيكي، ويعايشه، فينقل إلينا صورا متنوعة عنه –على مدار أربع حلقاتٍ–، ختم بها مدونته:
  - الشّباب: هم أيضا ممّن أعجب بهم الرّحالة لعديد الصّفات التي يمتازون بها، فرسم لهم صورةً إيجابيةً لا تشوبها شائبة، إذ أنّهم أهل للكرم الكبير، لهم روح مبادرة عالية، يتودّدون للآخرين، منفتحون عليهم ويتقبّلونهم، يحبّون إخوانهم الجزائريين إلى درجة كبيرة جدّا، وفي هذا المقام يمكننا أن نستدلّ بقوله: "وعندما ذكر لهم قصّة الخبز، قام واحد منهم وذهب بنفسه للخباز، وأتى بالخبز، ودون أن نطلب منه قدّم لنا نصيبا منه بإلحاح وتودّد ظاهرين [...] وبعد أن عرفوا أنّنا من الجزائر، كان فرحهم شديدا، ولم يسمحوا لنا بالدّفع"[81]
  - الطّاجيكيون عامة: أمّا هؤلاء، فلم يستثنيهم عن إخوانهم السّوفياتِ الآسيويين من تلك الصّورة الإيجابية التي رسمها لهم، إذ هم أيضا على قدر كبير من الكرم، وتقبّل الآخر، لا يحتقرونه، ولا ينظرون إليه بتعالي، محافظون على هويتهم؛ وعاداتهم وتقاليدهم متمسّكون بها أشدّ التّمسك،

وليس هذا فقط، بل كلّ ما من شأنه أن يطبعهم بطابع التّميز والتّحضر والأصالة، ولا أدلّ على ذلك من عادتهم التي دأبوا عليها والمتمثلة في الاحتفال بعيد النّوروز السّنوي، فها هي: "للتقاليد الشّعبية عند الطّاجكيين... منزلة كبرى تصل إلى حدّ القداسة؛ فهم يعتنون بفنونهم"[82].

4. خاتمة: من أهمّ ما توصّلت إليه هذه الدّراسة ما يلي:

إنّ الرّحالة أكثر من الحديث عن الأنا (ذاته)، فرسم لها صورا إيجابية؛ وفي مختلف المواقف والأحداث يعمل على تأكيد هذه الصّور لترسيخها، وإزالة كلّ لبس عنها. وإنّ حديثه عن «أناه» كان من خلال: طرح مختلف الرؤى والأفكار، المواقف والأحداث، الحوارات مع الآخر، حديث الآخر عن الأنا... وعموما الصّور التي رسمها الرّحالة في مدونته محلّ الدّراسة، كانت الغلبة فيها للصّور الإيجابية؛ في كلّ فضاء وفي كلّ مشهد. أمّا الصّور السّلبية فيكاد يكون حضورها منعدم، مقارنة بسابقتها.

الآخر؛ متعدّد ومتنوع، يعبّر عن صورته الرّحالة بشكل مباشر أو غير مباشر، مستخدما مختلف الأوصاف، التي تسمح بتشكيل صورة واضحة عنه. وقد كان هذا الآخر الذي ركّز عليه ليس فقط المواطن العادي (عامة الشّعب)، إنّما كان تركيزه الأكبر على الفئات المثقفة في كلّ بلد يزوره (العلماء، الأكاديميون، الصّحافيون، الفنانون، رجال الدّين، الأدباء، الفقهاء...)

بزيارته لأوزبكستان التي أخذ الحديث عنها حصّة الأسد -سبعَ عشرةَ حلقةً- كان تركيزه على المدن، وتاريخها، والتّاريخ الإسلامي بعامة، وعظماء الفكر الإنساني ممّن أنجبت هذه الأرض، والأضرحة والمزارات، ... أكثر من تواصله مع الآخر، لنجد نقصا في الصّورة المشكلة عنه، مقارنة بالفضاء السّابق -الأذربيجاني- الذي لم يعرّفنا بمدنه كثيرا، وكان تركيزه فيه على الآخر على اختلافه وتعدّده، وربما يعود هذا إلى اللّقاء الأول مع المختلف عنه. أمّا الفضاء الثّالث والأخير فلم يوفه حقّه، إذ خصّص له أربعَ حلقاتٍ، جلّها في الحديث عن طقوس العيد السّنوي «النّوروز»، وعن احتكاكه بالآخر ها هنا فقليلٌ جدّا، ممّا لم يسمح لنا بتشكيل صورة عامّة عن مختلف شرائح المجتمع مثلما سبق، وأن فعلنا، ولربما يعود سبب هذا إلى أنّ الرّحالة كان على عجل، أو كان منهكا، أو أنّ أمورا أخرى أهمّ شدّت انتباهه، أفضل من حديثه عن الآخر الذي لقيه في هذا الفضاء برمّته، والتقى به سابقا في فضاءين مماثلين.

الوضعيّة السّائدة في الرّحلة ككلّ هي وضعية التّآلف، لكنّ مع ذلك نجد الرّحالة كثيرا ما يصاب بهوس نتيجة ما رأى في الآخر أو لديه.

عموما، يكشف الرّحالة من خلال صورة الآخر عن العديد من السّمات المشتركة بينهم كآسيويين سوفيات والتي تتقاطع مع العديد من سمات الشّعب الجزائري، التي نورد منها: الكرم، الطّيبة، حسن الخلق، التّمسك بالهوية والمعتقد، الانفتاح على الآخر وتقبّله، تقدير العلماء والفنانين، احترام المرأة، ... إضافة إلى كونها تكشف عن الرّحالة في حدّ ذاته؛ بعض فكره ورؤاه، تصوراته، وما يطمح أن يكون عليه بلده.

5- الهوامش:

[1]أريج بنت محمد بن سليمان السّويلم: السّرد الرّحلي والمتخيّل لدى السّيرافي والغرناطي، دار السويدي- المؤسسة العربية للدراسات، الإمارات- لبنان، ط 1، 2017، ص 78

[2]عيسى بخيتي: أدب الرّحلة الجزائري الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، لبنان، ط 1، 2017، ص 289

[3]سعيد بنسعيد العلوي: أوروبا في مرآة الرّحلة (صورة الآخر في أدب الرّحلة المغربية) ، دار رؤية، مصر، ط 1، 2012، ص 14

[4]عيسى بخيتي: أدب الرّحلة الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 289

[5]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها

[6]سعيد بنسعيد العلوي: أوروبا في مرآة الرّحلة (صورة الآخر في أدب الرّحلة المغربية)، مرجع سابق، ص 14

[7]حسين موسى الصّفار: كيف نقرأ الآخر؟، الدّار العربية للعلوم، لبنان، ط 1، 2004، ص 19

[8]وائل بن يوسف العريني: الآخر في أدب الرّحلة(دراسة أنثروبولوجية)، الدّار المتوسطية للنشر، تونس، ط 1، 2020، ص 30

[9]حسين موسى الصّفار: كيف نقرأ الآخر؟، مرجع سابق، ص 20

[10]وائل بن يوسف العريني: الآخر في أدب الرّحلة (دراسة أنثروبولوجية)، مرجع سابق، ص 40

[11] محمد الدّاهي: صورة الأنا والآخر في السّرد، دار رؤية للنشر والتّوزيع، مصر، ط 1، 2023، ص 11

[12]وائل بن يوسف العريني: الآخر في أدب الرّحلة(دراسة أنثروبولوجية)، مرجع سابق، ص 32

[13]شعيب حليفي: الرّحلة في الأدب العربي: التّجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، سلسلة كتابات نقدية، عدد 121، الهيئة العامة لقصور الثّقافة، القاهرة، د ط، 2002، ص 40

[14]أريج بنت محمد بن سليمان السّويلم: السّرد الرّحلي والمتخيّل لدى السّيرافي والغرناطي، مرجع سابق، ص 85

[15]شعيب حليفي: الرّحلة في الأدب العربي: التّجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، مرجع سابق، ص 40

[16]يُنظر كمال بولعسل: رحلة أبي حامد الغرناطي (دراسة في فضاء الرّحلة) ، دار نوميديا، قسنطينة، د ط، 2011، ص 261

[17]مصطفى النّحال: المتخيّل السّردي العربي(دراسة في بنيات ووظائف العجائبي)، دار رؤية، مصر، ط 1، 2020، ص 73

[18]سعيد بنسعيد العلوي: أوروبا في مرآة الرّحلة (صورة الآخر في أدب الرّحلة المغربية)، مرجع سابق، ص 21

[19]شعيب حليفي: الرّحلة في الأدب العربي: التّجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، مرجع سابق، ص 41

[20]محمد المسعودي: الرّحلة ما بعد الكولونيالية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان، ط 1، 2021، ص 27

[21]عيسى بخيتي: أدب الرّحلة الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 335

[22]سعيد بنسعيد العلوي: أوروبا في مرآة الرّحلة (صورة الآخر في أدب الرّحلة المغربية)، مرجع سابق، ص 14

[23]نور الدّين أحمد بنخود: المرجعي والذّاتي في السّرد الرّحلي، كلمة للنشر والتّوزيع، تونس، ط 1، 2022، ص 315

[24]أريج بنت محمد بن سليمان السّويلم: السّرد الرّحلي والمتخيّل لدى السّيرافي والغرناطي، مرجع سابق، ص 77

[25] يُنظر المرجع نفسه، الصّفحة نفسها

[26]فتحية موسى: صورة إيطاليا في كتابات الرّحالين العرب القدامى، الدّار التّونسية للكتاب، تونس، ط 1، د س، ص 212

[27]المرجع نفسه، ص 26

[28]محمد الدّاهي: صورة الأنا والآخر في السّرد، مرجع سابق، ص 09

[29]أريج بنت محمد بن سليمان السّويلم: السّرد الرّحلي والمتخيّل لدى السّيرافي والغرناطي، مرجع سابق، ص 79

[30]محمد الدّاهي: صورة الأنا والآخر في السّرد، مرجع سابق، ص 08

[31]أريج بنت محمد بن سليمان السّويلم: السّرد الرّحلي والمتخيّل لدى السّيرافي والغرناطي، مرجع سابق، ص 79

[32]زهير سوكاج: تمثلات الشّرق في السّرد الرّحلي (دراسة تحليلية مقارنة)، المؤسسة العربية، لبنان، ط 1، 2020، ص 78

[33]سعيد جبار: خطاب الرّحلة الذّاكرة وآليات إنتاج الدّلالة، رؤية للنشر والتّوزيع، مصر، ط 1، 2017، ص 186

[34]المرجع نفسه، ص 166

[35]يُنظر محمد عباس: بين الوطنية... والشّيوعية، الشّروق، ع 660، الجزائر، 30 ديسمبر 2002، ص 07

[36]يُنظر عبد الحميد عثماني: لويزة حنون أكبر مؤامرة ضدّ اليسار، الشّروق، ع 4254، الجزائر، 12 جانفي 2014، ص 11

[37]يُنظر الطّاهر بن عيشة: أول رحلة إلى الاتحاد السّوفياتي، المحقق، ع 68، الجزائر، 30 جوان – 06 جويلية 2007، ص 18

[38]يُنظر الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، الحلقة 02، مجلة الوحدة، العدد 369، الاتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية، الجزائر، 21-27 جويلية 1988، ص 39

[39]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 01، م. و، ع 368، الجزائر، 14-1988/07/20، ص 39

[40]يُنظر المرجع نفسه، الصّفحة نفسها

[41]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها

[42]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 05، م.و، ع 373، الجزائر، 18-1988/08/24، ص 32

[43]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 03، م.و، ع 371، الجزائر، 04-1988/08/10، ص 38

[44]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 02، مرجع سابق، ص 39

[45]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها

[46]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 04، م.و، ع 372، الجزائر، 11-1988/08/17، ص 38

[47]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 07، م.و، ع 375، الجزائر، 02-1988/09/07، ص 32

[48]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 04، مرجع سابق، ص 38

[49]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 09، م.و، ع 377، الجزائر، 15-1988/09/21، ص 38
[50]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 12، م.و، ع 380، الجزائر، 06-1988/10/12، ص 40
[51]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 16، م.و، ع 385، الجزائر، 10-11/16/ 1988، ص 40
[52]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
[53]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 17، م.و، ع 387، الجزائر، 24-1988/11/30، ص 49
[54]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 19، م.و، ع 389، 08-1988/12/14، ص 40
[55]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 02، مرجع سابق، ص 39
[56]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 04، مرجع سابق، ص 38
[57]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
[58]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
[59]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
[60]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
[61]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 03، مرجع سابق، ص 38
[62]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 09، مرجع سابق، ص 38
[63]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 08، م.و، ع 376، الجزائر، 08-1988/09/14، ص 32
[64]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 07، مرجع سابق، ص 32
[65]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 08، مرجع سابق، ص 32
[66]يُنظر الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 04، مرجع سابق، ص 38
[67]يُنظر الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 07، مرجع سابق، ص 32
[68]يُنظر الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 04، مرجع سابق، ص 38
[69]يُنظر الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 05، مرجع سابق، ص 32
[70]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 07، مرجع سابق، ص 32
[71]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 06، م.و، ع 374، الجزائر، 08/25- 1988/09/01، ص 26
[72]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
[73]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 15، م.و، ع 384، الجزائر، 03-1988/11/09، ص 39
[74]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 17، مرجع سابق، ص 49
[75]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 26، م.و، ع 397، الجزائر، 02-1989/02/08، ص 41
[76]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 13، م.و، ع 382، الجزائر، 20-1988/10/26، ص 40
[77]المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
[78]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 11، م.و، ع 379، الجزائر، 09/29- 1988/10/04، ص 41

[79]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 26، مرجع سابق، ص 41

[80]يُنظر الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 14، م.و، ع 383، الجزائر، 10/27- 1988/11/02، ص 41

[81]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 30، م.و، ع 402، الجزائر، 09-1989/03/15، ص 39

[82]الطّاهر بن عيشة: أيّام مع المسلمين السّوفيات، ح 31، م.و، ع 403، الجزائر، 16-1989/03/22، ص 41

6. قائمة المصادر والمراجع:

– المصادر:

- مجلة الوحدة، الأعداد من 368 إلى 403 عدا 381- 386- 393- 399، الاتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية، الجزائر، من 14-20 جويلية 1988 إلى 16-22 مارس 1989

– المراجع باللّغة العربية:

- الدّاهي محمد: صورة الأنا والآخر في السّرد، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط 1، 2023
- السّويلم أريج: السّرد الرّحلي والمتخيّل لدى السّيرافي والغرناطي، المؤسسة العربية، لبنان، ط 1، 2017
- الصّفار حسين موسى: كيف نقرأ الآخر؟، الدّار العربية للعلوم، لبنان، ط 1، 2004
- العريني وائل بن يوسف: الآخر في أدب الرّحلة، الدّار المتوسطية للنشر، تونس، ط 1، 2020
- العلوي سعيد بنسعيد: أوروبا في مرآة الرّحلة، دار رؤية، مصر، ط 1، 2012
- المسعودي محمد: الرّحلة ما بعد الكولونيالية، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان، 2021
- النّحال مصطفى: المتخيّل السّردي العربي (دراسة في بنيات ووظائف العجائبي)، ط 1، دار رؤية، مصر، 2020
- بخيتي عيسى: أدب الرّحلة الجزائري الحديث، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان، ط 1، 2017
- بولعسل كمال: رحلة أبي حماد الغرناطي (دراسة في فضاء الرّحلة) ، دار نوميديا، الجزائر، د ط، 2011
- جبار سعيد: خطاب الرّحلة الذّاكرة وآليات إنتاج الدّلالة، رؤية للنشر والتّوزيع، مصر، ط 1، 2017
- حليفي شعيب: الرّحلة في الأدب العربي: التّجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، سلسلة كتابات نقديـــة، عدد 121، الهيئة العامة لقصور الثّقافة، القاهرة، 2002
- سوكاج زهير: تمثلات الشّرق في السّرد الرّحلي (دراسة تحليلية مقارنة)، المؤسسة العربية، لبنان، ط 1، 2020
- موسى فتحية: صورة إيطاليا في كتابات الرّحالين العرب القدامى، الدّار التّونسية للكتاب، تونس، ط 1، د س

– الجرائـد:

- الشّروق، العددان: 660 و4254، الجزائر، بتاريخ: 30 ديسمبر 2002 و12 جانفي 2014
- المحقق، ع 68، الجزائر، السّبت 30 جوان إلى الجمعة 06 جويلية 2007